



لتاريخ ذاكرة الشعوب. السياسة تبقى التاريخ حيا. متقدما، في إلهام مسيرة المجتمعات. ما من مجتمع عربي فقد ذاكرته كما فقدها السوريون. كان السوريون مجتمعا سياسيا، بحكم الموقع الجغرافي المفتوح، والنضال الطويل ضد الاستعمارين العثماني والأوروبي.

فهم السوريين العميق للسياسة قام على الالتزام بالعروبة، ليس كآيديولوجيا، وإنما كهوية تسمو فوق انتقاماتهم الضيقة. وقام منذ النهضة العربية، في أواخر القرن التاسع عشر على الالتزام بالديمقراطية. حذر الطبيب الدكتور عبد الرحمن الشهبندر الذي قاد ثورة الغابة (الفوطة) المحيطة بدمشق عامين متوالين (1925 / 1927)، زعماء ثورة رشيد عالي الكيلاني العراقية (1940) من استلهام الفاشية النازية المعادية للديمقراطية.

انتصر السوريون بالسياسة. واكتفوا بها. أبقوا مشعل العروبة متقدما في المجتمعات العربية، إلى أن دفنهم المشروع السلطوي العلوي 1963 م . حيدهم سياسيا على مدى خمسين سنة. مع فقدهم السياسة، فقدوا تاريخهم الحديث. فقدوا ذاكرتهم السياسية. مع إلغاء النظام العلوي للسياسة. وللتاريخ، تم تزييف ومسخ الديمقراطية كآلية لإرساء الحرية. وكأدأة وحيدة لتعامل التعذيرية السورية الدينية والعرقية، على قدم المساواة في الحقوق والواجبات.

لجأ المشروع السياسي العلوي، منذ بوادر الخمسينيات، إلى أداتين لتحقيق الذات: الجيش والطائفة. اعتمد المشروع، أولا، «الحزب السوري القومي الاجتماعي» كمركبة للوصول إلى السلطة. رفض السوريين لحزب فاشي ينفي عروبة سوريا، اضطر الضباط العلوبيين إلى امتطاء حزب البعث (القومي العربي) كمركبة لتحقيق المشروع الطائفي. في غياب الحرية، زيف النظام النضالية العربية. جمد الكفاح من أجل استعادة الجولان، تحت شعارات الصمود. والتصدي. والمقاومة. والممانعة، لتضليل العرب ومخادعتهم، فيما تم عمليا إلحاق المشروع العلوي، بالمشروع الشيعي الفارسي لاختراق المشرق والخليج العربيين.

ماذا تعني الثورة السورية الراهنة؟

بساطة، هذه الثورة استعادة للسياسة. هي محاولة لاستعادة الذاكرة التاريخية.

لكن يجب أن تكون ثورة أيضا من أجل الديمقراطية. ثورة ضد الطائفية. ثورة من أجل حماية الأقليات، بما فيها الأقلية العلوية. لا ثورة من أجل التهجير الحاصل للمسيحيين. أو للانتقام من المدنيين العلوبيين.

لماذا وقع نظام الأسد الأب والابن أسيير طائفية مذهبية شرسة مستعدة لقتل شعبها؟

جانب من الجواب يكمن في التاريخ الذي ألغى من الذاكرة. باختصار، أقدم هنا مثلاً واحداً لتعریف الأجيال العربية والسوبرية الجديدة بالجذور العميقه للمشروع السلطوي العلوي.

عندما ذهب قادة النضال الوطني (زعماء الكتلة الوطنية) إلى باريس 1936 لتفاوض حكومة ليون بلوم اليسارية على الاستقلال، فوجئوا بحركة سياسية انفصالية في جبال العلوبيين المطلة على البحر. انهمرت رسائل الانفصاليين بغزارة على بلوم، مطالبة بالانفصال عن سوريا، ومتمسكة بالدولة العلوية التي بقيت إلى نهاية الثلاثينات، فيما سقط في مهد العشرينات مشروع تقسيم سوريا إلى دوبيلات الذي استلهم الفكر الاستشراقي الأوروبي، في رؤيته لسوريا، مجرد طوائف ومذاهب دينية وعرقية.

هذه الرسائل العلوية وثقها مؤرخون وباحثون عرب، في استحياء وخوف شديدين من النظام العلوي، معتمدين وثائق وزارة الخارجية الفرنسية. من هذه الرسائل، أنقل بما تسمح الرقعة الورقية الضيقة في هذه الصفحة بعض التعبير والإشارات الموحية.

في أول رسالة علوية، يقول زعماء ووجهاء علويون: «نلت نظركم إلى ما ينتظر العلوبيين من مصير مخيف وفطيع، في حالة إرغامهم على اللتحاق بسوريا». ثم يضيفون في عدائية استفزازية للغالبية السنوية، منددين باستغلال سوريا. فهو عندهم «يعني سيطرة بعض العائلات السنوية على الشعب العلوي».

وتبلغ المأساة الذروة بمقارنة وضع العلوبيين بوضع اليهود: أولئك اليهود الطيبين الذين جاءوا إلى العرب المسلمين بالحضارة والسلام... ولم يوقعوا الأذى بأحد، ولم يأخذوا شيئاً بالقوة. ومع ذلك أعلن المسلمون ضدّهم الحرب المقدسة. ظهرت تحت الرسالة المثيرة ستة توافق. بينها توقيع سليمان الأسد والد حافظ الأسد الذي يقال إن توقيعه دُسَّ على الرسالة. والدليل أنه لم يكن من زعماء الطائفة. وكان معروفاً بالانتماء إلى أسرة (الوحش)، قبل أن يلقب لاحقاً بـ«الأسد». وبين الموقعين الشاعر العلوي الكبير محمد سليمان الأحمد (بدوي الجبل)

الأمانة مع التاريخ ومصداقية الصحافة، تفرضان على أن أقول إن العلوبيين آنذاك كانوا منقسمين حول الانفصال عن سوريا أو الانضمام إليها.

في رسالة وحدوية مضادة للرسائل الانفصالية، وجه زعماء علويون آخرون، بينهم الشيخ صالح العلي، رسالة إلى بلوم، يرفضون فيها فكرة ضمهم إلى لبنان: «...الحقائق التاريخية واللغوية التي جميعها تؤكد أن إقليمنا لم يكن منفصلاً عن سوريا... إن الوفد السوري الموجود حالياً في باريس يمثل رأي وأمال الأغلبية العظمى من سكان سوريا».

لا تعليق لي على هذه الرسائل المختلفة. إنما أشرت إليها لتعويد الجيل السياسي السوري الجديد على البحث عن التاريخ، لاستعادة الذاكرة التاريخية، والاعتبار بأحداثها. فلا حاضر، ولا مستقبل، بلا وصل مع الماضي القريب. أيضاً تذكرنا للتاريخ وللأمانة الصحفية، أقول إن أكثر العلوبيين استغفاراً ورجوعاً عن الخطأ كان الشاعر بدوي الجبل. غفر السوريون لشاعرهم الأكبر. قدموه. وزَرُوه. وهو في أناقته الشخصية والشعرية، واكب انتصاراتهم. أفراحهم. وماسيهم. خلد بدوي الجبل دمشق وهي تحت نيران دفاع الاحتلال الأجنبي:

يا سامرَ الحِيِّ هل تَعْنِيكَ شَكواناً؟ *** رَقَّ الْحَدِيدُ وَمَا رَقَّوا لِبَلْوَانَا!
السامِرُ الْحَلُوُّ قدْ مَرَ الزَّمَانُ بِهِ *** فَمَزِقَ الشَّمْلَ سُمَّارًا وَنُدْمَانَا
أَرْكَى مِنَ الطَّيْبِ رَيْحَانًا وَغَالِيَّةً *** مَا سَالَ مِنْ دَمٍ قَتَلَنَا وَجَرَحَانَا

يحتيني الهجير حيناً، ولا يرحمُ
أسمالَ فقريَ الزمهريرُ ***
وعلى الجوع والضئن والرزايا
في دروبِي أسيّر ثم أسيّر ***

الموت أحياناً يأتي رحمة للمعذَّبين، مات بدوِيُّ الجبل غماً 1981، وهو يرى حافظ الأسد يسوق زعماء النقابات المستقلة إلى المعتقلات والسجون:

لم أهادن ظلماً وتدربي اللالي *** في غد أيّنا هو المدحور

المصدر: سوريون نت

المصادر: